مالهِ . نعم قد نجد لهذا النوع من الوفاء بعض امثلة في تاريخ العرب القدماء ولكن الذي يدرس احوالهم ويدقق في طبائعهم لا يرى هذه الفكرة الروحية قد بلغت عندهم مبلغها اليوم بين الامم التي ارتقت آدابها العمومية ونظرياتها الاجتماعية . لا اقول ذلك من قبيل التحكم او الاقتناع الذي لا مردّ لهُ ولكن من قبيل الاستناد على مظاهر اجتماعية قد اكون مخطئاً في تأويلها

وللشعر القديم سجايا كثيرة غير ما ذكر . كالصراحة وذم الرخاء والصبر على الاذى وما شاكل مما هو معروف وقد كان بودّي لو استشهدت على كل سجية من السجايا التي ذكرتها آنفاً بابيات من الشعر القديم ولكن ذلك يطيل الكلام ولا اهون من ان يفتح الراغب كتاب الحماسة او دواوين الاقدمين فيرى تلك السجايا ظاهرة للعيان

انيس الخوري المقدسي

فتح الاندلس

(٣)

حين تمّ ليوليان وطريف النصر اخذ موسى بالاستعداد واستجد عزماً في اقتحام اسبانيا فدعا مولى لهُ كان على مقدمته ومن اكبر المحرضين على غزوها يدعى طارق بن زياد بن عبد الله . ويقول كوبه Coppé انهُ فارسي همذاني وقد صار مولى لموسى من صغره الاَّ انهُ على الراجح بربري من نفزة ولذا لقبهُ المؤرخون بطارق البربري . وكان طويل القامة احمر الشعر مبيضّه ويدعوهُ الاسبان طارق Eltuerto اي الاحول (١)

فعقد لهُ موسى سنة ٧١١ وبعثهُ في سبعة آلاف من الجند جلهم من الفرسان البربر والموالي . اما العرب فكانوا قادتهم وضباطهم وهم لا يزيدون على الثلاثمائة . ووجه معهُ يوليان لحمل هذا الجند اسطولٌ تجاري يتألف من اربع سفن يمخر في عباب الرقاق . وهو خاصة يوليان وقد نزل الجند في منت كابه Mons Calpé الذي دعي جبل الفتح او جبل طارق

(١) Coppé الجزء الاول صفحة ٧٨

وبعد نزول الجند الى الشاطىء اخذت سراياهُ تضرب في الارض الرعب وتتقدم كشافتهُ الفرسان في البلاد المجاورة . واول من وقف في وجه الفاتحين مدافعاً عن البلاد هو القائد ثيودمير Théodmir ويدعوهُ العرب تدمير واليهِ تنسب المقاطعة الواقعة في الجنوب الشرقي من الاندلس اذ كان حاكماً عليها (٢) ولم يناجز العرب في معركة فاصلة بل كان يحمل عليهم مناوشات خفيفة آناً بعد آن ويرتد الى الوراء طالباً النجدة من الملك. ومن كتاب لهُ الى عاهلهِ قولهُ « إنهُ قد نزل بارضنا قوم لا ندري أمن السماء هم ام من الارض (٣) ارسل الينا الامداد وان اتيت يا صاحب الجلالة بنفسك كان ذلك اولى »

ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس وخيانة يوليان وهو في غزاة لهُ في الشمال فاقبل بجموعهِ الى مدينة قرطبة واستفزّ اجناد الاسبان وكتب الى اولاد غيطشه يدعوهم الى الاجتماع معهُ على حرب العرب ومحضهم على ان يكونوا على عدوهم يداً واحدة (٤) فاتوهُ مرصدين لكروههِ لما قدمناهُ من الاسباب واتوا قرطبة ونزلوا اكناف « شقندة » بعدوة نهرها

وعسكر لذريق في نحو ٥٠ الى ٩٠ الفاً (٥) ضعاف النفوس للترف الذي اصابهم وكان عدد وفير منهم لا يحسنون استعمال السلاح. هذا عدا عن الشاحنات الحربية والخيانة التي كانت تلعب من وراء ستار

فطلب طارق من موسى الامداد حين خفّ اليهِ لذريق بما لا قبَل لهُ بهِ وكان هذا منذ وجّه طارقاً قد اخذ في صنع السفن حتى صار عندهُ منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف فاصبح جيشهُ اثني عشرة الفاً (٦)

---

(٢) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٤٤

(٣) نفح الطيب الطبعة الازهرية المصرية صفحة ١١٢ . Coppé الجزء الاول صفحة ٢٤٥ History of the Dominion of the Arabs in Spain, Condé جزء ١ صفحة ٥٥

(٤) نفح الطيب الطبعة الازهرية المصرية الجزء الاول صفحة ٢٠

(٥) المقري وCoppé يعتقدان ان الجيش القوطي كان مائة الف اما Condé فيخالفهما ويقول ان الجيش القوطي كان ثمنين الفاً . لكن ابن خلدون يقول ان الجيش كان أربعين الفاً في الجزء الرابع صفحة ١١٧ . Coppé جزء أول صفحة ٢٤٦ Condé الجزء الاول صفحة ٥٦

(٦) المقري جزء ١ صفحة ١٢٠

وكان في هذه المدة قد تقدم طارق بجيشهِ الى جوار مدينة شدونه (صيدونا) ولذريق الى شاطىء ال Guadalete كواداليتي « وادي لكة »

انهُ لمن الصعب ان نحدد الموقع الرسمي الذي اشتعلت فيهِ المعركة الفاصلة اذ انهُ غالباً ما يطلق على المعركة اسم النهر او البلد المجاور لها فلما استعرت نار الوقيعة بالقرب من مدينة "Xeres de la Frontera"[٧] دعاها بعضهم بذا الاسم. ويقال لها ايضاً معركة "Guadalete" وهي مشهورة بهِ نسبةً الى النهر الذي كان الحدّ الفاصل بين الجيشين حين نشبت المعركة وهو يجري نحواً من خمسة وسبعين ميلاً في سهل شدونه وتصب مياههُ في خليج قادش. ومما يذكر ان القتال كان على اشده بالقرب من بحيرة "La Janda" امام مدينة شدونه

وقد دامت المعركة ثمانية ايام اكّد كثير من المؤرخين خسران الاسبان اياها قبل ابتدائها لان عسف الملك كان قد ارهق نفوسهم وشل سواعدهم. اجل كانت معنوياتهم ضعيفة بينما كان العرب امةً حربية لها من مجدها ثمانون عاماً ما دخلوا فيها ارضاً الاّ فتحوها ولا التقوا بجيش الاّ كسروه[٨]

ان جيش لذريق كان يتألف من رجال لا يعرفون الاخلاص ولا يعبأون ان ربح لذريق المعركة او خسرها انما كان موقفهم تجاههُ موقف الرجل المتحين الفرص فان انتصر ابلوا معهُ وان رأوا منهُ ضعفاً ولوا الادبار. ومع انهم كانوا عديدين فلم يكن سلاحهم بالجيد ولا تمودوا الهجوم بجسم واحد ولم تكن علاقة الجنود بالقادة مرضية

اما الجيش الاسلامي فكان يختلف تمام الاختلاف عن الجيش الاسبنيولي يهجم كالرجل الواحد وينظر الى الغنيمة نظر المشتاق الوله وكان عدد الفرسان يقارب نصف الجيش وقد اقبلوا وعليهم الزرد وفوق رؤوسهم العمائم البيض وبايديهم القسيّ العربية[٩] وكان لهم من يوليان المستأمن اليهم في رجاله اكبر مساعد للاستدلال على العورات وتجسس الاخبار

(٧) وتسمى بالعربية « لحس شريش »
(٨) Coppé الجزء الاول صفحة ٨٠
(٩) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١١٣

وفي التاسع عشر من شهر تموز (يوليو) سنة ٧١١ تواجه الجيشان وقبل ان تبتدىء المعركة قام لذريق خطيباً وكان على سرير بين دابتين وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ومن جملة قوله قد حان وقت الانتقام للامة الاسبانيولية العظيمة وللايمان المقدس من هؤلاء العرب. وذكّرهم بمجاد اجدادهم القوط وبقوة جيشهم العديد وبعد ذلك امر بالمعركة ان تبتدىء

ففي اليوم الاول كانت الوقيعة عبارة عن مناوشات طفيفة لم تسفر عن فوز احد الجيشين ولما اتى الليل خيم السلام عليهما الاّ انهُ لم يكد ينبلج فجر اليوم الثاني الاّ وحمي وطيس القتال وكان الانتصار فيهِ للقوط وذلك لكثرة عددهم. اما النتيجة فلم تكن فاصلة . وما كان العرب ليجازفوا برجالهم مع قلتهم وكثرة اعدائهم ولما ابتدأت معنوياتهم ان تضعف لكنّ طارقاً قام في اليوم الثالث خطيباً وسار بين الصفوف وبث روح الاقدام وحضهم على الثبات اذ ان القائد في هذا الموقف عظيم بشخصيته الساحرة وقوة بيانهِ كيف لا وهو امام جندٍ كاد ان يولي الادبار فثبت قوماً كاد الفشل ان يدب في صفوفهم فتذهب ريحهم ويفشلون . انهُ دعاهم الى اعلاء كلمة الله والاستشهاد وهذه لها غاية التأثير لاسيما وحرارة الايمان لم تزل حديثةً تضطرم نيرانها في صدورهم . وقد جعل الموت امامهم كأساً شرابهُ هنة الحينات اذ قال لهم «ابدأ بنفسي» فترك الانانية جانباً وجعل التضحية المثال الاعلى وكان للفتيا التأثير الاكبر باستيلائهِ على قلوبهم

فهاجمت العرب صفوف القوط وحملوا عليهم حملة صادقة وراجت بعد ذلك اشاعة مقتل لذريق في الجيش الاسباني فتضعضع . وفي هذه الحال العصيبة التي كانت مستوليةً انحاز اوباس وولدا غيطشه اللذين كانا رأسي الجناحين الايمن والايسر الى طارق لما اضمروا في سرهم من نيات الغرب نحو البلاد وعقدوا واياهُ معاهدةً تقضي بان يسلم اليهم اذا ظفر ضياع ابيهم بالاندلس كلها وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك[١٠] فانهزمت الميمنة والميسرة وثبت القلب بعدها قليلاً وفيهِ لذريق الاّ انهُ تقهقر اخيراً وولى الادبار وتقدم المسلمون بسرعة مطاردين فحول الجيش والفارين كي لا يتركوا لهم فرصةً يجمعون بها شتاتهم . وقد يظهر لنا جلياً مما ذكرنا ان القتال الشديد

(١٠) نفح الطيب لجزء الاول صفحة ١٢١

دام نحواً من ثلاثة ايام والبقية من الثمانية ايام قضيت في مطاردة الاعداء

اجل ان معركة ١٩ تموز من سنة ٧١١ جعلت كل اسبانيا تحت رحمة العرب ويصفها الاسبان بقولهم انها من الوقائع المبكية

وكانت غنائم العرب جلها من الخيل وبذلك تم لهم التقدم السريع في اسبانيا وتقدر قتلاهم بثلاثة آلاف اذ ان الغنيمة قسمت على تسعة آلاف وكان الجيش قبلاً اثني عشر الفاً . اما خسارة الاسبان فهي ثلاثة اضعاف خسارة المسلمين وكان نصيب الفريق الغرق اذ ساخ الفرس في طين وحمأة

ويعتقد كوبه Coppé أن طارقاً لم يحرق الاسطول الذي حملهُ الى الشواطيء الاسبانية اذ كيف يتسنى لقائد غريب مهاجم قد طلب الامداد من موسى للظفر على اعدائهِ أن يحرق الاسطول الذي كان الواسطة الوحيدة لامدادهِ ويقول ان الاسطول كان دوماً حركة الاتصال بين الشاطئين الافريقي والاوربي ولذا يصعب الجزم في صحة رواية حرقهِ (١١)

ولكنَّ طارقاً درس عقلية جنودهِ البربر فعرف انهم قوم يتنافسون في الرئاسة ويفشلون اذا جعل لهم من البحر امالاً يرقبونها عن كثب حين تشتعل الوقيعة ويهاجمهم العدو بجيشهِ الكثير ، وقد صدق ظنه اذ كاد الجيش ان يولي الادبار في اليومين الاولين من معركة كوادليتي لو لم يقف فيهم خطيباً ويستذكرهم بالوعود

اما قول Coppé « في ان الاسطول كان دوماً حركة الاتصال بين الشاطئين الافريقي والاوربي فهو اعتقاد وجيه يثبتهُ المقري بقولهِ « ان موسى منذ وجه طارقاً لوجههِ اخذ في عمل السفن حتى صار عندهُ منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً (١٢) » ولذا نستنتج ان طارقاً حرق السفن الاربع التي اقلتهُ ولبس الاسطول بأجمعهِ . وقد ظلَّ هذا دوماً يخر في عباب الرقاق حاملاً الجنود والامداد والمؤن . ولما تسامع الناس من اهل بر العدوة بالفتح على طارق بالاندلس وسعة المغانم فيها اقبلوا من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليهِ من مركب ولحقوا بهِ

(١١) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٤٣ — ٢٤٤

(١٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٣٠

ومن ثمة احتل طارق المدن القريبة منهُ مثل (شريش Xeres) ومورون Moron وقرمونه ومدور واشبيلية (وقد صالحهُ اهلها على الجزية) واستجه (وقد دافعت دفاعاً عنيداً)

وفيما طارق يجمع جيشه لاتمام الفتح اذا بموسى يأمرهُ بعدم التقدم الى ان يأتيهُ بنفسهِ مع الامداد وينسب المؤرخون هذا لما جال في صدرهِ من الحسد نحو القائد الظافر . لكنَّ طارقاً عقدَ مجلس شوراه للنظر في اوامر موسى فقرروا جميعهم متابعة الزحف مستندين ان موسى كان جاهلاً حالة الجيش الاسباني وما آل اليهِ من التشتت وانهم بتأخرهم يجعلون لفلول الجيوش الاسبانية فرصة سانحة للاتحاد ومناجزتهم معركة شديدة ربما انتصتهم . وكان من اكبر المحرضين على ذلك يوليان وقد قال لطارق أنتذر ٥ هؤلاء ادلاء من اصحابي ففرق جيوشك معهم في جهات في البلاد واعمد انت الى طليطلة العاصمة حيث معظمهم فاشغل القوم عن النظر في امرهم والاجتماع الى اولي رأيهم(١٣)

ولذا قسم طارق جيوشه الى ثلاث فرق(١٤) اسند قيادة الفرقة الاولى منها الى مغيث الرومي(١٥) ويقول ابن حيان انهُ رومي سبي بالمشرق وهو صغير فاديهُ عبد الملك بن مروان مع طفلهِ الوليد وقد نشأ مغيث بدمشق وافصح بالعربية وتدرب على الركوب وانخرط في سلك الجندية فحاز منهُ التصيب الاوفر من التقدم حتى اسند اليهِ الفرقة الاولى لفتح قرطبة . وقد كان يُعرف بشجاعتهِ ومعرفتهِ اساليب الحرب وخدعها

اما الفرقة الثانية فقد اوكل اليها الزحف شرقاً الى ملقا وكان يستلم زمامها زياد بن قاصد الكسكي وهو تابعي اصلهُ من مصر . وقد كانت الفرقة الثالثة تابعة لزياد ايضاً وهذه تقدمت نحو غرناطه عاصمة البيرة

اما الجسم الاكبر من الجيش فزحف شمالاً الى طليطلة العاصمة عن طريق قرطبه . وكان موعد اجتماع الفرق الثلاث مع طارق بعد اتمام ما وُكل اليهم من الفتح في جيان

انيس زكريا النصولي

(١٣) الاحاطة في اخبار غرناطة تأليف الوزير لسان الدين الخطيب صفحة ١٧ — ١٦
(١٤) الاحاطة B « « صفحة ١٧ وابن C الجزء الاول صفحة ٢٨٨
(١٥) نفح الطيب الجزء الثاني صفحة ٥٤ — ٥٥